المكانة الرفيعة للعدل بين القيم الإسلامية

لم يكن العدل في حياة هذه الأمة المحمدية الخاتمة مجرد مُثلٍ عُليا، أو وصايا تفخر بها دون ممارسة، أو تطبيق، ولكنه كان واقعاً عاشته هذه الأمة، ومارسته، وطبَّقته في واقع حياتها على مر تاريخها الطويل، وعلى تفاوت في ذلك التطبيق بين زمان وزمان، ودولة ودولة، وحسب اشتعال جذوة الإيمان في قلوب الحاكمين، وخبّوها، غير أن ما يقطع به: أنه لم يخل زمانٌ ممَّن يقيم الحق، والعدل، ويقوم بالقسط، ويحكم به من هذه الأمة.

وحسبنا أن نذكر فيما يلي صوراً من عدل هذه الأمة فيما بينها، ومع أعدائها وخصومها، وأهل ذمتها، وسنختار هذه الصور من واقع الأمة من خلال تاريخها الطويل؛ ليعلم: أن هذه الأمة لم تزل قائمة بالقسط بين الناس، شاهدة به على الناس لله، وأنها جديرة بأن تكون الأمة الوسط الشاهدة على البشرية. وأولى هذه الصور نعيشها مع سيد الخلق، وإمام العالمين نبيِّنا محمد ﷺ إمام هذه الأمة، ومعلمها الخير، وهو يضرب أروع الأمثلة، ويلقن أمته أبلغ دروس العدل، والإنصاف، والمساواة. (عبد الله، 1994، ص 168)

فها هو ﷺ يُقِيْدُ أحدَ أصحابه من نفسه في طعنة طعنها إياه بالقِدْح في بطنه أثناء تسويته الصف للقتال: روى ابن إسحاق أنه ﷺ: (عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر «بسواد بن غزية» وهو مُسْتَنْتِلٌ من الصف، قال ابن هشام: ويقال: مستنصل من الصف ـ فطعنه في بطنه بالقدح ـ وقال: استوِ يا سواد! فقال: يا رسول الله أوجعتني! وقد بعثك الله بالحق، والعدل، فأقِدْني! (الذهبي، 1982، الجزء 7ص 35)

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «استقِدْ». قال: فاعتنقه، فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟!» قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك! فدعا له رسول الله ﷺ بخير).(ابن هشام، 1955، ج1،ص626)

وجاء يهوديٌّ يشتكي إليه أحد أصحابه قائلاً: يا محمد! إنَّ لي على هذا أربعة دراهم؛ وقد غلبني عليها. قال: «أعطه حقَّه»، قال: والذي نفسي بيده، ما أقدر عليها، قد أخبرته: أنك تبعثنا إلى خيبر، فأرجو أن تغنمنا شيئاً، فأرجع فأقضيه! قال: «أعطه حقه». وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يراجع....

وكان ﷺ يقيم حدود الله على من وجب عليه ذلك في عدلٍ، وإنصافٍ، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، ولا قرابة قريب، ولا مكانة شريف، فها هو ﷺ وهو الصادق المصدوق البار في قسمه يقول: لو أن ابنته سرقت؛ لأقام عليها الحدّ، لا يدفعه عنها كونها ابنة محمد ﷺ.

وأخرج الإمام البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلِّم فيها رسول الله ﷺ ومن يجترأى عليه إلا أسامة حبُّ رسول الله ﷺ فكلم رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟» ثم قام: فخطب، فقال: «يا أيها الناس إنما ضلَّ من كان قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق الشريف؛ تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم؛ أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطع محمدٌ يدها!».

فإن قيل: هذا محمد رسول الله ﷺ وليس غريباً منه هذا العدل، ومن يعدل؛ إن لم يعدل هو؟

قلنا: وهذا رجل من أصحاب رسول الله ﷺعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يهتدي بهدي رسول الله ﷺ فيقيم العدل، والقسط بين الناس، يحكم بالحق لرجل يهودي على مسلم، ولم يحمله كفر اليهودي على ظلمه، والحيف عليه. أخرج الإمام مالك ـ رحمه الله ـ من طريق سعيد بن المسيب: (أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه اختصم إليه مسلم، ويهودي، فرأى عمر: أن الحق لليهودي، فقضى له، فقال له اليهودي: والله لقد قضيت بالحق!...).

وكان رضي الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم، فإذا اجتمعوا؛ قال: أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم، ولا من أموالكم، إنما بعثتهم؛ ليحجزوا بينكم، وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد قام، فقال: يا أمير المؤمنين! إن عاملك فلاناً ضربني مئة سوط! قال: فيم ضربته؟ قم فاقتصَّ منه! فقام عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك، ويكون سنة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنالا أَقِيْدُ؛ وقد رأيت رسول الله يُقِيْدُ من نفسه! قال: فدعنا فلْنُرْضِه، قال: دونكم فأرضوه، فافتدى منه بمئتي دينار كل سوط بدينارين. وإن لم يرضوه؛ لأقاده، رضي الله عنه.(ابن سعد، 1990، ج3، ص294)

مراجع البحث:

علي محمد الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة،1422ه-2001م صص90-93

ابن هشام أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، ، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، الطبعة الثانية، 1375 هـ-1955م

شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1402 هـ/ 1982م..

ابن سعد، الطبقات الكبرى ، دار الكتب العلمية، بيروت.1410ه-1990م

محمد باكريم محمد عبد الله، وسطيَّة أهل السنة بين الفرق، دار الراية، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، 1415 هـ/ 1994م.